من تراب الطريق (٣٣٦)

هل سقطت نظرية دارون؟! (*)

نشرت بعض صحف السبت ٣/ ١٠ ـ أن فريقًا من العلماء الأمريكيين فى أصول الجنس البشرى، توصلوا إلى هيكل عظمى بشرى لأثيوبية مضى عليه حوالى ٤,٤ مليون سنة، فيما يعد أقدم هيكل بشرى أمكن الوصول إليه، وأطلق عليه فريق البحث ـ اسم «أردى».

وأعلن الفريق البحثى، وهو من جامعتى كين ستيت وكاليفورنيا، فى تقرير نشرته مجلة «Science»، أن الكشف يسقط نظرية دارون التى أثارت ضجة هائلة منذ ظهورها فى أخريات القرن قبل الماضى، فالهيكل البشرى المكتشف واحد من أسلاف البشر القدامى يرجع إلى أكثر من أربعة ملايين سنة، وأقدم بنحو مليون سنة من هيكل «لوسى» التى كانت أحد أهم الأصول البشرية المعروفة. أما هيكل «أردى» المكتشف حديثًا، فهو لأنثى قيل إنها بطول ١٢٠ سم، وأنه وإن كان الرأس يشبه رأس القرد، إلاّ أن تجويف الحوض لديها يظهر أنها كانت تسير منتصبة كالبشر لا منحنية على مفاصل الأصابع كالشمبانزى والغوريلا!

فهل أسقط هذا الكشف نظرية دارون فى النشوء والتطور والارتقاء وأصل الأنواع؟!

(*) المال/٧/ ١٠/ ٢٠٠٩

هذه النظرية وضعها دارون (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) ، هو عالم طبيعى إنجليزى ، درس الطب فى أدنبره نزولًا على رغبة أبيه ، ولكنه لم يجد ميلا للعمل بالطب وبدأ يدرس العلوم فى كيمبردج ، وشغف بالتاريخ الطبيعى ، وقام برحلة بحرية على الباخرة «بيجل» استغرقت خمس سنوات ، وكانت بداية لأبحاثه فى النشوء والتطور والارتقاء ، ووضع كتابه : «أصل الأنواع» .

كان لمذهب دارون أثر كبير فى الميدان البيولوجى ، وفى الفلسفة وميادين المعرفة الأخرى ، وأدت دراساته إلى التساؤل عن الاعتقاد فى الخلق الخاص بكل نوع من الأنواع ، وهى نظرية كانت موضع اعتقاد علماء عصره ، فتقدم بالبيانات التى جمعها عن تطور الأشكال الحيّة جميعها من أصل واحد مشترك . وخلص إلى أن هناك كفاحًا من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد ، وأكد وجود تغير فردى فى داخل النّوع ، وأن الأفراد ذوى التغير الأكثر ملاءمة يكون لهم حظ أوفر للبقاء . وأن بعض هذه التغيرات ينتقل للخلف ويحتفظ بها فى الأجيال التالية .. وهذا هو مبدأ الانتخاب الطبيعى الذى تأثر فيه بآراء «مالتوس» .. وهذا الانتخاب الطبيعى هو أساس نظرية دارون فى عملية التطور العضوى .. فنظرًا لعوامل بيئية مختلفة ـ ككمية الغذاء والماء المتوافرة ، ودرجة الحرارة والضغط ، وزيادة أو قلة الناتج الحيوانى والنباتى ـ نشأ وينشأ الكفاح من أجل البقاء ، ويسفر هذا الكفاح دائما عن انتصار وبقاء الأقوى والأصلح للتكيف تكيفًا أفضل مع البيئة .. فيتكاثر الأفضل ، وينقرض العاجز عن

مواجهة ظروف البيئة .. وانتهى دارون إلى أن الفرد فى تاريخه يعيد تاريخ تكوين الجماعات التى ينتمى إليها !

ومع الضجة التى أثارتها الداروينية ، وتصاعد الإعجاب بها ، إلاّ أنها تعرضت لنقد بعض علماء القرن الماضى ، فأخذوا عليها عدم تفرقتها بين التغيير المكتسب الذى لا يورث ، والصفات الجينية التى تورث .. لذلك أدخلت على النظرية تحويرات اقتضتها المعرفة الحديثة بأصول الوراثة !

من الاختصار المخل اختزال الداروينية فى أن الإنسان أصله قرد . المسألة الأهم من نفى أن الإنسان كان قردا ، هو ما تكشف عنه البحوث تباعا عن هياكل عظمية بشرية ترجع إلى ملايين السنين ، وتصطدم بقصة الخلق ومدته فى بعض كتب الأديان التى يستفاد منها أن عمر البشرية بين سبعة وعشرة آلاف عام !

الاكتشاف الجديد يعيد فتح قضية قديمة ، اجتهد فيها الدكتور عبد الصبور شاهين برأى عرضه فى كتابه : «أبى آدم».. توقف فيه عند استعمال القرآن المجيد لكلمة «بشر» وحالات ودلالات ومعانى استخدام الكلمة ، ثم عرض لاستعمال القرآن لكلمة «الإنسان» .. والمواضع التى فيها ورد لفظ «البشر» والأخرى التى ورد فيها لفظ «الإنسان» .. لينتهى باجتهاد يعرضه إلى أن «البشر» لفظ عام لكل مخلوق على الأرض يمشى منتصب القامة على قدمين ، بينما «الإنسان» لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفا بمعرفة الله وعبادته .. فكل إنسان بشر ، وليس كل بشر إنسانا . وإنه لأمرٍ ما نرى القرآن لا يخاطب البشر وإنما يخاطب الإنسان ، ونجد

التكليف الدينى منوطًا بصفته «الإنسانية» .. وأن الإنسان هو وحده المقصود بالتكليف الدينى ، وأنه إذا كان البشر بعامة هم طلائع الخليقة ، ثم بادوا ودرست آثارهم ، فإن آدم هو أبو الإنسان المكلف المجدول حوله قصة الخلق فى كتب الأديان ..

وكما أثارت نظرية دارون ضجة كبرى ، أثار كتاب الدكتور عبد الصبور شاهين ضجة أكبر حتى تطرف البعض فعدوه من باب الكفر أو الإلحاد .. واعتدل البعض فطلبوا مراجعة بعض الصياغات ، وليبقى الحوار دائما بين العلم والدين حول قصة الخليقة !

*****